تعقيب على بحث الأستاذ الدكتور حنا حداد وعنوانه "الخليل بن أحمد والكتاب"

د. فوزي حسن الشايب (*)

أودّ أن أعقّب على ما جاء في بحث الزميل الفاضل الأستاذ الدكتور حنا حداد في العدد السادس والأربعين من مجلة اللسان العربي الغراء خدمة للحقيقة العلمية من ناحية، وإنصافاً للكتاب ولصاحبه- أبي النحو العربي- من الناحية الأخرى. وأجمل ملحوظاتي على هذا البحث في ثلاث هي:

الأولى: إن الباحث استخدم اللقب "الأخفش" (ص205 ،عمود 1 ،سطر14، ص 208،عمود 2 ،سطر 1) وقصد به أبا الخطاب الأخفش الأكبر أستاذ سيبويه في اللغة، ولكن من المعروف والمسلم به أن لقب " الأخفش" إذا أطلق دون قيد فإنه يقصد به الأخفش الأوسط تلميذ سيبويه أبو الحسن سعيد بن مسعدة (215هـ). لذا كان ينبغي للباحث أن يقيد لقب الأخفش بـ "الأكبر" حتى يعرف أن المقصود به هو أستاذ سيبويه لا تلميذه . والملقبون بـ "الأخفش"، كما هو معروف، ثلاثة ،هم: الأخفش الأكبر أستاذ سيبويه، والأخفش الأوسط تلميذ سيبويه، والأخفش الأصغر وهو علي بن سليمان تلميذ ثعلب. وإذا أطلق لقب "الأخفش" دون أي قيد فإنه ينصرف إلى تلميذ سيبويه حصراً، فهو علم بالغلبة له دون غيره.

الثانية: يحكم الباحث(ص206 ،عمود 2 ، سطر 5) بأن الشاهد الذي "لا يعرف قائله ليس بحجة كما أجمع عليه العارفون بهذه الصناعة". وهذا غير صحيح لم يقل به أهل الصناعة. وإلاّ لوجب إسقاط عدد كبير من الشواهد التي لا يعرف قائلها في كتاب سيبويه؛ قرآن النحو، والتي لا يقتصر عددها على الخمسين،كما يعتقد من لا خبرة له، فالخمسون المجهولة، هي التي كان يجهلها الجرمي والقدماء، أما المجهول بالنسبة لنا- هذه الأيام- فهو أكثر بكثير من ذلك. فهناك ثلاثمائة وأربعون موضعاً لم ينسب فيها الشاهد إلى قائل معين. وقد استطاع العلماء والمختصون معرفة أصحاب قسم كبير منها، ولا يزال هناك أكثر من مائة شاهد مجهولة القائل (ينظر: أسطورة الأبيات

(*) إربد / الأردن

الخمسين في كتاب: بحوث ومقالات في اللغة، رمضان عبد التواب 1982م ، الصفحات 89-140).

ونقول: إن الذي عليه أهل الصناعة أن الشاهد المجهول القائل إن استشهد به ثقة مثل سيبويه فإن الجهل بصاحبه لا يقدح في قيمته اللغوية، فيجب قبوله، ولا يجوز ردّه؛ لأن رواية الثقة لا ترد. قال صاحب الخزانة (16/1): "إن الشاهد المجهول قائله، وتتمّته إن صدر من ثقة يعتمد عليه، قُبل، وإلاّ فلا. ولهذا كانت أبيات سيبويه أصحّ الشواهد اعتمد عليها خلف بعد سلف، مع أن فيها أبياتاً عديدة جُهل قائلها وما عيب بها ناقلوها".

ومما يؤخذ على البحث والباحث معاً ما جاء في (الصفحة رقم 207 ،عمود 1 ،سطر 11) وهو قوله: "ولم يكن عنده (أي سيبويه) فرق بين أن يكون الشاعر الذي يحتج بشعره مشهوراً أو مغموراً، أو هو ممن يجوز الاحتجاج بشعرهم أو لا ".

وهذا كلام خطير؛ لأنه اتهام صريح لأبي النحو العربي بأنه في تقعيده لقواعد اللغة كان يأخذ شواهده من كل من هبّ ودبّ، وأنه لم يكن يحرص على توخي الحيطة والدقة والحذر. وهذا كلام باطل، لا يجوز أن يصدر من متخصّص في النحو والصرف بحق أبي النحو والصرف العربي الذي استهلّ كتابه بعبارة: " هذا باب علم ما الكلم من العربية". إن سيبويه ثقة في ما يرويه، ولا يروي الثقة إلاّ الموثوق بصحته من الشواهد والاستعمالات،قال صاحب الخزانة (317/9): " الشاهد الذي جُهل قائله إن أنشده ثقة كسيبويه، وابن السراج، والمبرد ونحوهم فهو مقبول، يعتمد عليه، ولا يضرّ جهل قائله؛ فإن الثقة لو لم يعلم أنه من شعر من يصح الاستدلال بكلامه لما أنشده". وقال في موضع آخر، (الخزانة 16/1-17): " وقد خرج كتابه (أي سيبويه) إلى الناس والعلماء كثير، والعناية بالعلم وتهذيبه وكيدة، ونُظر فيه، وفُتّش، فما طعن أحد من المتقدمين عليه، ولا ادّعى أنه أتى بشعر منكر. وقد روى في كتابه قطعة من اللغة غريبة، لم يدرك أهل اللغة معرفة جميع ما فيها، ولا ردّوا حرفاً منها".

الثالثة والأخيرة: يقول الباحث تحت عنوان "تصويب" (ص207، عمود 2، سطر 17) أنه عثر على تحريف واضح في الجزء الرابع من كتاب سيبويه يجدر – على حد قوله– ألاّ يبقى كما هو عليه! وذكر أن موطن التحريف هو قول سيبويه: "وزعم الخليل أن بعضهم يقول: رأيت رَجُلَأْ، فيهمز، وهذه حُبْلأ، وتقديرهما: رَجُلَعْ وحُبْلَعْ فهمز لقرب الألف من الهمزة".

وقد علق الباحث قائلاً: "هذا هو النص.أما التحريف فهو في قوله: "رجلأ" وتقديرها: رجلع ؛إذ ليست في هذه الكلمة ألف لتكون قريبة من الهمزة كما كانت الألف في حبلى". ثم أردف يقول (ص 208، عمود 1، سطر 5): " والصحيح أن الكلمة هي"رَجْلى"بفتح الراء وسكون الجيم على وزن فَعْلى "مثل عجلى وسكرى".

بداية نقول: إن كلمة "تصويب" تعني الحكم بالصواب. وهذا خلاف ما قصده الباحث، لذا

فالصواب أن يقول "تصحيح" لا "تصويب".

وبعد، فإن هذا القول من باحث متخصص في النحو والصرف يعد غاية في الغرابة، بل هو عجب من العجب! لقد نسي الباحث السياق الذي وقعت فيه كلمة "رجل" في عبارة سيبويه، وهو: "رأيت رجلاً" "فرجل" مفعول به منصوب للفعل، والمنصوب المنون عند الوقف عليه، يوقف عليه بحذف التنوين والتعويض بألف بدلا من التنوين هكذا: رأيت رجلا، فالكلمة تنتهي بألف مثل "حبلى" ، فليس هناك تحريف البتة. فالذي من لغته الوقوف على الألف بالهمزة يقول: رأيت رجلأ ، بإبدال الألف همزة تماما كما يقف على"حبلى"،فيقول: حبلأ. لقد أساء الباحث فهم كلام سيبويه، فزعم أن هناك تحريفا، وليس في هذه العبارة أي تحريف البتة، والعجب كيف يخفى ذلك - على الرغم من وضوحه- على أستاذ متخصص في مادة النحو ؟! وزيادة في التوضيح، وتأكيداً لصحة عبارة سيبويه، نورد كلام ابن جني في كتابه: سر صناعة الإعراب (74/1)، يقول ابن جني: "وحكى سيبويه عنهم في الوقف: هذه "حبلأ" يريد "حبلى"، ورأيت "رَجُلأ"، يريد رَجُلا. فالهمزة في "رَجُلَأْ" إنما هي بدل من الألف التي هي عوض من التنوين في الوقف". وقال في الخصائص (17/2): و"من ذلك قولهم في الوقف: رأيت "رَجُلَأْ" بالهمزة . فهذه الهمزة بدل من الألف في الوقف في لغة من وقف بالألف،لا في لغته هو".

وعليه،فالعبارة صحيحة،ولا تحتاج إلى تغيير ولا تعديل.

ونقول بعد هذا: إننا قد وقفنا على موطنين حصل فيهما تحريف في كتاب سيبويه يجب تصحيحهما، وهما من أخطاء الورّاقين والنقلة. أما التحريف الأول، فهو ما جاء في الكتاب (243/3، وطبعة بولاق 23/2) " وسمعنا من يقول: كجالب التمر إلى هَجَر إلى فتى". وقد عرضنا لهذا التحريف في بحثنا الموسوم بـ " أخطاء الورّاقين والنقلة وأثر ذلك في تشويه النصوص" الذي نشر في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني العدد 1996،50م. وذكرنا هناك أن الصواب هو: "كجالب التمر إلى هجرٍ" بالجر والتنوين. ودلّلنا على ذلك بالدليل القاطع فلينظر هناك.

وأما التحريف الآخر الذي وقفنا عليه في الكتاب فهو في قول سيبويه (الكتاب 381/4، وطبعة بولاق 380/2): "وكأنّ أصل "إشاوة"، "شيئاء ". ولكنهم قلبوا الهمزة قبل الشين، وأبدلوا مكان الياء الواو كما قالوا: "أتيته أتوة، وجبيته جباوة". فكلمة "شيئاء" هنا محرّفة -من وجهة نظرنا- عن "شياءة" ذلك أننا لو قمنا بإجراء التغيرات التي ذكرها سيبويه على "شيئاء" هذه لما حصلنا على "إشاوة". وعليه، فلا تكون "شيئاء" أصلاً لـ إشاوة؛ لأننا إذا قدمنا الهمزة في "شيئاء" قبل الشين حسب عبارة سيبويه، وأبدلنا الياء واواً لحصلنا على : "أشواء" إن قدمنا الهمزة الأولى لام الكلمة، وعلى "أشوأى" إن قدمنا الهمزة الأخيرة؛ همزة التأنيث . وفي كلتا الحالتين لا نحصل على "إشاوة". فدل ذا على أن أصل "إشاوة" ينبغي أن

يكون كلمة أخرى غير "شيئاء" وهي عندنا "شياءة". والدليل على ذلك كلام الرضي الاستراباذي في شرح الشافية (31/1)، قال: "وقال سيبويه: أشاوى جمع إشاوة في التقدير، فيكون إذن مثل: إداوة وأداوى كأنه بني من شيء "شياءة" ثم قدّمت اللام إلى موضع الفاء، وأخّرت العين إلى موضع اللام : فصارت "إشاية" ثم قلبت الياء واواً على غير قياس كما في "جباوة".

فهذان الموطنان هما اللذان وقع فيهما تحريف. ويجب تصحيحهما في الطبعات القادمة للكتاب حتى يكون كما أراده سيبويه، لا كما أراد الورّاقون والنساخ.